احتقار الشباب بالموت

للاستاذ الكبير عبد الهادي المختار

لو اردنا ان نحصي ما كتب الكتاب والمؤرخون وما نظمه الشعراء والزجالون عن مصرع سيد الشهداء وعن حادث كربلا ، ذلك الحادث الذي لازالت ذكراه ترددها أرجاء المعمورة مدة ثلاثة عشر قرناً . لو اردنا لعداد المؤلفات التي اسهبت في شرح ذلك الحدث المفجع لاعجزنا الاحصاء ولأخطأنا التعداد . .

حادثة مروعة مؤلمة مفجعة محزنة ولكنها حوت بين طياتها احداث وشواهد وسير وعبر وادب وفن وسمو واستعلاء وحق وعدل .

لا أريد ان اسهب واطنب واكثر من الشرح فقد سبقني الى ذلك من لم يدع لي ولا لأمثالي كلمة جديدة وصفحة شاغرة فقد سلكوا جميع سبل الفاجعة وطرقوا ابوابها وفي كل مسلك منها عظة وفي كل باب منها عبرة .

هذه صفحات اقدمها من صفحات تلك البطولة الخالدة ومناظر أضعها امام اعينكم من مناظر التضحيـــة والايثار والمروءة والكرم .

هذه المثل العليا التي نحن احوج الناس الى اتباعها ونحن على ابواب عالم جديد . واولى الناس بالتمسك باهدابها فهي تراثنا الخالد ورمز مجدنا الذاهب الغائب الذي نسعى لبعثه واحيائه .

اعتقد ان صفة الشجاعة كما نعتها اجدادنا وشادوا بها ومجدوها ليس لها في الوقت الحاضر ذلك المدلول الذي وضعت له الكلمة ولا ذلك المعنى السامي الذي قصدوه فالشجاعـة في عرفنا ان هي الا عدم الخوف ، اما الأوائل فقد ازادوا بها الايثار والشهامة والمروءة والنخوة والاقدام . قصدوا منها هذه المعاني ومعاني اخرى لانقل نبلا عما ذكرت .

الشجاعة بمعناها الاول لم يبق لها وجود . ماتت من يوم ان وجدت معدات الموت الحديثة ووسائل التدمير الجديدة فلم يبق للفرد امام المـدفع شأن واصبح الطفل الصغير يمكنـه اطلاق اي سلاح كان فيردي اقوى الناس . كان البطل المدل بحسامه المتبختر على فرسه يقارع خصومه مالكاً في مواطن الخطر لجأشه غير متناس لجميع مبادىء الانسانية في احرج الاوقات حتى ولو كان في ذلك هلاكه فليس الهلاك بعار ولكن العار كله في مخالفة النواميس البشرية . اما اليوم فيرتكب الخصم مايرتكب ضد خصمه مما تأنف منـه الطباع وتمجه الاذواق وهو لا يرى في ذلك باساً بل يعـد كل ذلك ضرباً من ضروب الشجاعة .

الشجاعة هي طاعة الزعماء . هي الثبات على المبـدأ . هي احقاق الحق . هي الدفاع عن العدل . هي حماية الضعيف هي رفع الاذى . هي منع الاعتداء . هي الغيرة . الشجاعـة هذه هي التي قصدها أجدادنا يوم امتدحوا المتصفين بها .

ضروب الشجاعة هذه نجدها في اقوال الشهداء الذين سفكوا دماءهم وباعوا ارواحهم واسالوا مهجهم بين يدي قائدهم وزعيمهم الحسين بن علي عليه السلام . لم يرهبوا قلة عددهم وكثرة عدوهم . ولم يفت في عضدهم عطش ولا سغب ولم يردعهم عن الموت في سبيل الحق رادع رغم مابذل لهم من وعود وعهود . ولم تؤسر البابهم انوار الحياة الخلابة ومعظمهم شباب لم يبلغوا سن الرجولة . وانا لا اتكلم الا عن اولئك الشباب والى الشباب ممن يستمع . ولا اذكر الا اقوال الشباب ومصارعهم تذكرة للشباب الحي ففي التذكر عظة وعبرة لاولي الألباب .

رأى الحسين عليه السلام مبلغ الخطر الذي يتعرض اليه اصحابه وهم قليلون اذا هم أصروا على ملازمته والانضواء تحت رايته فجمعهم وخطب فيهم وحرضهم على التفرق لئلا يصيبهم ماسيصيبه فالقوم لاشأن لهم الا به ولا غرض لهم سواه . وما كاد المجتمعون يستمعون دعواه حتى نهض فيهم شاب تقـدم

غيره من الكهول والشيوخ : ـ

قد سمعنا هداك الله يا ابن رسول الله مقالتك . والله لو كانت لنا الدنيا باقية . وكنا فيها مخلدين لانفارقها الا في نصرتك ومواساتك لاثرنا الخروج منها معك على الاقامة فيها .

اما الباقون فقد كانت اعينهم تقدح شرراً تأبيداً للمتكلم وآخرون سالت على خدودهم دموع هي دموع الهياج والحماس لادموع الخوف والوجل .

وسمع علي الاكبر اباه عليه السلام وهو يقول :

ـ انا لله وانا اليه راجعون . والحمد لله رب العالمين .

فيفور دم الشباب . ويغلي مرجل الشجاعة :

ـ يا ابت . لاأراك الله سوءاً . السنا على الحق ؟

ـ بلى . والذي اليه مرجع العباد .

ـ ياأبت . اذن لانبالي . نموت محقين .

ـ جزاك الله من ولد . خير ماجزى ولداً عن والده .

وكان من اتباع الحسين عليه السلام شباب لهم اخوال ذووا نفوذ وكلة لدى عبيدالله بن زياد ومراكز مرموقة في جيش ابن سعد فبذلوا الامان لابناء اختهم ان هم فارقوا سيدهم وقائدهم وانفضوا من حوله . ولكن جواب الفتية وقد بذلت لهم الحياة لم يكن الا الرفض باباء وشمم لذلك الامان :

ـ لاحاجة لنا فى امانكم . امان الله خير من امان ابن سمية .

واما أحدهم فقد بلغ به الغيظ ان لعن خاله :

ـ لعنك الله . ولعن امانك . لئن كنت خالنا اتؤمننا وابن رسول الله لاأمان له ؟

وعاد عليه السلام الى تحذير اصحابه . . .

ـ هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا

ـ لم نفعل ؟ لنبقى بعدك ؟ لاأرانا الله ذلك أبدا .

ـ يابني عقيل . حسبكم من القتل بمسلم . اذهبوا قد اذنت لكم .

ـ فما يقول الناس ؟ يقولون انا تركنا شيخنا وسيدنا وابن عمومتنا خير الاعمام ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب معهم بسيف ولا ندري ماصنعوا ؟ لا والله لانفعل . ولكن نفديك انفسنا واموالنا واهلينا . ونقاتل معك حتى نرد موردك . فقبح الله العيش بعدك . ويندفع من بين المجتمعين شاب يهدر ويرغي ويزبد :

ـ انحن نتخلى عنك ؟ ولما نعذر الى الله في اداء حقك ؟ اما والله حتى أكسر في صدورهم رمحي واضربهم بسيفي مائبت قائمه فى يدي . ولا افارقك . ولو لم يكن معي سلاح اقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى اموت معك .

ونهض آخر وقد ارتعدت اطرافه وتشنجت عروقه :

ـ والله لانخليك حتى يعلم الله انا قد حفظنا غيبة رسول الله فيك . والله لو علمت اني اقتل ثم احيا ثم احرق حياً ثم اذر يفعل ذلك بي سبعين مرة مافارقتك حتى القى حمامي دونك فكيف لاافعل ذلك وانما هى قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لاانقضاء لها ابداً .

وبرز من بينهم آخر .

ـ والله لانفارقك . ولكن انفسنا لك الفداء . نقيك بنحورنا وجباهنا وايدينا . فاذا نحن قتلنا كنا وفينا وقضينا ماعلينا .

ثم يتقارع الخصوم . وتستعر النيران . وتسيل الدماء . ويتطاير النبال فيسقط أحد الشهداء صريعاً حيث يسرع اليه زميله :

ـ لولا اني اعلم اني في اثرك لاحق بك من ساعتي هذه لاحببت ان توصيني بكل ماأهمك حتى احفظك في كل ذلك بما انت اهل له في القرابة والدين .

ولكن الشهيد المحتضر يوصيه بسيده ومولاه لابأهله وولده .

ـ أنا اوصيك بهذا رحمك الله ان تموت دونه .

ـ افعل وبوب الكعبة .

ويتقدم الشباب . الواحد تلو الاخر . يردون حياض الموت . باسمين هاتفين مهللين مكبرين . يسقطون على الثرى كالنجوم تهاوى نجوم السماء وهم يستأذنون سيدهم كلما تقدموا ويسلمون عليه مودعين .

ووقف شيخ من صحبه والحرب على اشدها يدفع بولده

جئت ياجداه أذري دمعة

للاستاذة الفاضلة دعد الكيالي

يافتاة الدرب إبكي واندبي يوم عاشوا، واستبكي ونوحي
كربلا أي مآس هجت لي فغدا قلبي كالطير الذبيح..!
كربلا اي دماء أهرقت فوق كثبانك يامهد جروحي!
كربلا يا آهة الشعر ويا دمعة الفن ويا أنة روحي
جئت أسعى بحنين ظامئ لثرى جدي تخفيني مسوحي
وحت أبكي بذهول خاشع وأناجي من بذياك الضريح:

***

جئت ياجداه اسعى وانا مثل نسر تاعس الجد العثور
جئت ياجداه اذري دمعة دمعة المظلوم يدعوا ثبوري!
جئت ابكي وطناً ضاع ولم أر من يفديه الا بالشعور..!
كلهم يهتف فليحيي وقد صار واموتا من أهل القبور!
ضاع من عرب وهم في لهوهم يضربون الطبل لاطبل النفير!

***

ليتني ياجد قدمت ولم أر مسرى جدنا ملك اليهود
ليتني ياجد قدمت ولم أر قومي عيشهم عيش العبيد
يرتضون الذل ياجد كان لم تمت في ساحة الحق الشهيد!
مت حر الرأي لم تخضع لما يخفض الهامة ياخير الجدود
حرموك الماء ياجد فلم ينل الحرمان من عزم الحديد
قتلوا ولدك ياجد فلم ينل القتل من الباس الشديد

***

كلهم كان شجاعا باسلا لم يطق صبراً على ظلم يزيد
قتلوا؟ لا. إنهم أحياء في جنة الخلد بأمن وسعود
غلبوا؟ لا إنهم لم يغلبوا كيف ياجدوهم أسد الاسود؟
إنهم قد نصروا الحق وما مات من مات فدى الحق التليد
ليتنا متنا فدى أو طاننا ليت أنا لم نخدر بالوعود
ليتنا ياجد ثرنا مثلما ثرت قدماً بالظبا لا بالقصيد
شهد الله بأني وانا أبدع الشعر وأشدو للخلود
قد كرهت الشعر والنثر معاً وعشقت النار في جوف الحديد!
ليتني نار عصوف تمحق الظلم والطغيان من هذا الوجود
ليتني قنبلة ذرية فأريح الكون من شر اليهود!
ليتني لكنني ياجد في عزلتي يرهقني ثقل القيود

***

جئت أستوحي ضريحاً ظاهراً وبقلبي ذكرة الماضي الأسيف
وعلى خدي دمع ناطق بشجوني آه من دمع ذريف!
ثم ودعت وروحي ذاهل وعلى ثغري صدى الروح الهيف
آه ياذكرى فؤاد ذاب من ضيعة القدس ومأساة الطفوف
إيه يامن ألهمتني مبدئي إيه يابنت الرزايا والصروف
أفهمي الأعراب أن الحق لا شيء يعليه سوى الحرب العنيف

تربلة النجف — دعد الكيالي

الشاب الى خوض المعركة فيخوضها باسما ويودع الحياة صريعا وتهب ام فتدفع وحيدها الشاب اليافع الى الموت فيندفع اليه بقلب غير هياب فيضيع بين سنابك الخيل.

ايريد القائد جنوداً ابر من هؤلاء الجنود واطوع؟

ايحلم الزعيم باتباع أثبت من هؤلاء الاتباع واكثر اخلاصاً؟

ايرغب الشجاع بشجعان اكثر بلاءً واصبر عند الخطوب من هؤلاء؟ هذا هو البر. هذه هي الطاعة. هذاهو الثبات. هذا هو الاخلاص. هذه هي النصرة هي الايثار هي التضحية هي الشجاعة.

لاأجد لأولئك الشهداء السعداء وصفاً يمثلهم خيرما وصفهم به اعداؤهم وسفاكوا دمائهم يومئذ حيث قال بعضهم لبعض:-

- ياحمقا. اتدرون من تقاتلون؟ فرسان المصر. قوماً مستميتين. لايبرزن لهم منكم احد. فانهم قليل وقل مايبقون والله لو لم ترموهم الا بالحجارة لقتلتموهم.

ولو أنصف لقال انهم مؤمنون لامستميتون.

فهنيئاً لتلك الارواح التي حلقت في سماء الخلود.

بغداد — عبد الهادي المختار